

مفهوم التقوى في الفكر الإسلامي دراسة تحليلية

The Concept of Piety (Takwa) in Islamic Thought: An Analytical Study

محمد الهادي وناس

Mehamed El Hedi OUNASS

جامعة الزيتونة - تونس

medhedi543@gmail.com

تاريخ القبول: 2025/05/18

تاريخ الإرسال: 2024/11/04

الملخص:

يهدف هذا البحث إلى بيان مفهوم التقوى في المدونة الإسلامية مبرزاً أهم الأخلال الطارئة على هذا المصطلح، والتي شوّشت مفهومه وجعلته مشوّهاً في عقول الناس وتصوّراتهم، وهو ما خرج عن مراد الشارع من تحقيق هذه القيمة الأخلاقية في الفرد والمجتمع. فالبحت يسعى إلى الكشف عن حقيقة التقوى وفق ما جاءت به نصوص الوحي فضلاً عما جادت به قرائح السلف والخلف من أرباب الفكر الإسلامي. ويتناول بحثنا بالدرس الأسئلة الآتية: ما هو مفهوم التقوى في اللغة والاصطلاح؟ وما هو مدلول هذا المصطلح في نصوص الإسلام التأسيسية من القرآن والسنة؟ وأي خلل طرأ على هذا المصطلح فحال بين الأمة الإسلامية وتحقيق أملها في النهضة والشهود الحضاري؟

الكلمات المفتاحية: مفهوم؛ التقوى؛ الفكر الإسلامي؛ النهوض الحضاري.

Abstract:

The research aims to clarify the concept of piety (taqwa) in the Islamic canon, highlighting the distortions that have confused its meaning in people's minds. It seeks to uncover the true essence of piety according to the texts of revelation, as well as the insights of both early and later Islamic thinkers. The study addresses the following questions: What is the definition of piety linguistically and terminologically? What does this term signify in the foundational texts of Islam, including the Quran and Sunnah? What disruptions have occurred regarding this concept that have hindered the Islamic community from achieving its aspirations for revival and cultural presence?

Keywords: Concept; Piety; Islamic thought; Cultural revival.

تمهيد:

يعد مصطلح التقوى من أكثر المصطلحات إثارة للجدل في الحقل القيمي والأخلاقي، نظراً لما يمثله هذا المصطلح من أهمية وفاعلية كبيرة في بناء الإنسان التقى والزكي سواء في بعده الفردي أو المجتمعي.

كما أصبحت "التقوى" في عصرنا ذات التباس ويكتنفها الغموض في أذهان وتصورات كثير من الناس، ولا سيما مع الانفتاح اللامشروط على شتى الثقافات والفلسفات الأخرى.

والتقوى بالرغم من كونها قيمة فطرية مركوزة في الذات الإنسانية؛ جاءت الشرائع الإلهية لتوكيدها وتنشيطها، والإسلام بمصدره الأساسيين أكد على أهمية هذه القيمة الأخلاقية باعتبارها أداة للشهود والترقي في السلم الحضاري، وهو ما يجزم به المتتبع لدلالة هذا المصطلح في الفكر الإسلامي لولا بعض الأخلال الطارئة التي فهمت التقوى بعيدا عن وظيفة الإنسان الإستخلافية والتعميرية في الأرض، فانحرفت به عن التقوى الأصل، وهو ما أثر سلبا على واقع الأمة الإسلامية حيث اقترن مفهوم التقوى بالجمود والانعزالية بدل الحركة والفاعلية.

فما هو مفهوم التقوى في اللغة والاصطلاح؟ وما هو مدلول هذا المصطلح في نصوص الإسلام التأسيسية من القرآن والسنة؟ وأي خلل طرأ على هذا المصطلح فحال بين الأمة الإسلامية وتحقيق أملها في النهضة والشهود الحضاري؟

1. المفهوم اللغوي والاصطلاحي للتقوى:

1.1. التقوى لغة:

تعود كلمة "تقوى" إلى الجذر (و،ق،ي) وتجمع معاجم اللغة العربية على أن التقوى تفيد معاني الصون والحفظ والحذر والوقاية والتحرز من الوقوع في المحذور؛ قال ابن فارس (ت 395هـ) في مقاييسه: "الواو والقاف والياء كلمة واحدة تدل على دفع شيء عن شيء بغيره، ووقيته أقيه وقيا، والوقاية ما يقي الشيء"¹.

ويؤكد الزمخشري (ت 538هـ) على معنى التوقي وأخذ الحيطة والحذر مما من شأنه أن يصيبنا بضرر، حيث يعتبر أن التقوى من التوقية والوقاية من المساوئ، واتقى الله حق تقاته وتقاه وتقواه، وفيه تقيا تصغير تقوى، قال النمر:

وإني كما قد تعلمين لأتقي * تقيا وأعطي من تلادي للحمد

وعلى فلان واقية كواقية الكلاب، وهذا وقاء له ووقاية، لما يوقى به الشيء².

كما يعاضد صاحب لسان العرب (ت 711هـ) ما ذهب إليه أسلافه في معنى كلمة التقوى ويعدد المعاني المتفرعة عن أصل (وقي) فيقول: "وقيت الشيء أقيه إذا صنته وسترته عن الأذى (...). ووقاه أي حماه والمصدر الوقاية والوقاية والوقاية (...) ومعنى اتقى واتقى، اتقيت الشيء وتقيت أقيه تقى أي حذرته والاسم التقوى (...) وقوله تعالى: ﴿هُوَ أَهْلُ النَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾ (المدثر: 56) أي هو أهل أن يتقي عقابه وأهل أن يعمل بما يؤدي إلى مغفرته (...) وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ﴾ (الأحزاب: 1) أثبت على تقوى الله ودم عليها. فرجل تقى: معناه أنه موق نفسه من العذاب والمعاصي بالعمل الصالح"³.

ومعنى التقوى عند الزبيدي (ت 1205هـ) لا يبتعد كثيرا عما ذكره باقي اللغويين، بل إن صاحب تاج العروس يعزز معنى التقوى بما تفيد من اتخاذ ما يتوقى به من خطر محقق أو ضرر متوقع ويجول بنا في استعمال العرب المتفرعة عن هذا المعنى المركزي للتقوى مثل الفرس الواق إذا كان يهاب المشي من وجع يجده في حافره ومثل الواقية بمعنى الحماية وجمعها الأواقي قال الشاعر:

ضربت صدرها إلي وقالت * يا عديا لقد وقتك الأواقي⁴.

نخلص مما تقدم أن مادة (وقي) تشير أصالة إلى معنى الوقاية والحذر والحماية والصيانة، والتي يؤخذ بها فتحول دون حصول الضرر وتحقيق الخطر، وتتفرع عن التقوى معاني أخرى تستعمل في

سياقات مختلفة، فيطلق مثلا على الدرع اسم الواقية إلخ، وذلك دون قطع الوصل مع المعنى الأساسي للتقوى بما هو دفع للضرر والمكروه عن النفس، والحذر من الوقوع في المحذور، فتكون التقوى "جعل النفس في وقاية مما يُخاف"⁵ على حد تعبير الأصفهاني (ت 502هـ) وذلك حسب تسمية مقتضى الشيء بمقتضيه والمقتضى بمقتضاه.

2.1. التقوى اصطلاحاً:

إذا كانت التقوى في اللغة بمعنى الاتقاء واتخاذ الوقاية، فإن هذا المعنى الأساسي لا يغيب عن مفردات وتعريفات أهل الاصطلاح فهذا الجرجاني (ت 816هـ) يقرر في تعريفاته بأن مصطلح التقوى عند أهل الحقيقة يطلق ويراد به الاحتراز بطاعة الله عن عقوبته، وهو صيانة النفس عما تستحق به العقوبة من فعل أو ترك ويرى أن مؤدى هذه الكلمة يختلف بين الطاعة والمعصية فالتقوى في الطاعة بمعنى يراد به الإخلاص وفي المعصية يراد به الترك والحذر.⁶

كما يحاول التهانوي (ت 1362هـ) رصد مفهوم مصطلح التقوى في كشفه ويتفق مع صاحب التعريفات في كون التقوى وقاية وصيانة النفس من الضرر فهي: "شرعا امتثال الأوامر واجتناب النواهي، وبعبارة أخرى حفظ النفس عن الآثام وما ينجر إليها". ويوسع التقطازاني (ت 792هـ) الدائرة المفهومية لمصطلح التقوى فلا يحدده بالتوقي من المذموم شرعا فحسب وإنما مما من شأنه الإخلال بالمروءة عرفاً.⁷

فالتقوى الشرعية إذن -كما يقول الشيخ ابن عاشور (ت 1393هـ)- هي: "امتثال الأوامر واجتناب المنهيات من الكبائر وعدم الاسترسال على الصغائر ظاهراً وباطناً، أي اتقاء ما جعل الله الاقتحام فيه موجبا غضبه وعقابه، فالكبائر كلها متوعد فاعلها بالعقاب دون اللوم (...). والمتقين من اتصف بالاتقاء وهو طلب الوقاية، والوقاية الصيانة والحفظ من المكروه، فالمتقي هو الحذر المتطلب للنجاة من شيء مكروه مضر"⁸.

وتجدر الإشارة إلى أن التقوى في اصطلاح أهل الحقيقة أو الصوفية لها مدلولها الذوقي الخاص فهي مقام يتحقق فيه الصوفي بالتبري مما سوى الله تعالى، فالتقوى كما يقرره القوم هي: "مشاهدة الأحوال على قدم الانفراد، أو أن لا ترى في قلبك شيئاً سواه، وقيل هو أن تزين سريرتك للحق كما تزين علانيتك للخلق، وقيل هو ترك ما دون الله، وقيل ترك حظوظ النفس ومباينة النهي، وقيل أن لا ترى نفسك خيراً من أحد، وقيل الاقتداء بالنبي عليه الصلاة والسلام قولاً وفعلًا"⁹.

تبين جلياً أن معنى التقوى عند أهل الاصطلاح يرتبط بالمعنى اللغوي للكلمة والتي تفيد الاتقاء واتخاذ الوقاية وحماية النفس من الضرر. وينبني عليه ليعبر مصطلح التقوى عن امتثال أوامر الله تعالى واجتناب نواهيهِ لتوقّي عقابه وغضبه. ذلك التوقي الذي يستصحب الخوف والذي من شأنه الترقّي بالأخلاق والتحلي بجميل الخصال والصفات في حضرة خالق الأرض والسموات ولذلك كانت التقوى درجات ومقامات وهو ما نتناوله تباعاً.

2. التقوى في نصوص الإسلام التأسيسية:

1.2. "التقوى" في القرآن الكريم:

جاء ذكر اشتقاق جذر (و. ق. ي) في القرآن الكريم في الكثير من المواضع وزاد عن المانتين والخمسين مرة، واستخدمت صيغة المصدر "التقوى" حوالي سبعة عشر مرة، خمسة منها في آيات مكية والباقي في آيات مدنية.¹⁰ وهذا يدل ولا ريب عن أهمية القيام بالتقوى ويشير إلى ضرورة تمسك الإنسان

بالتقوى وحثه على ترسيخها في جميع شعاب حياته، ليكون في صفوف المؤمنين المتقين حيث قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْتَظِرْ نَفْسُ مَا قَدَمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (الحشر: 18).

والتقوى في الحقيقة هي أمر فطري مركز داخل الذات الإنسانية فهي إلهام من الله تعالى، وقابلية وضعها في الإنسان لتحري الفعل الإيجابي من السلبي، ومن ثم يمكن للإنسان أن يعمل على تزكية نفسه قترتقي به ليكون الأتقى ويفلح في مستقبله، أو يحول بينها وبين فعل الخير فتدنو به إلى الفجور فيكون الأشقى، ومن ثمة الخيبة، ولذلك قال تعالى في سورة الشمس: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (7) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (8) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (9) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (10)﴾ (الشمس).

لقد جاءت الأديان وبعث الله الرسل لتعزيز تلك القيمة التكوينية المشتركة بين الناس، ويخضع الخلق لله الواحد الأحد ويعلم أن الأكرم عند الله هو الأتقى يقول تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (الحجرات: 13) فالله حقيق بأن لا تنتهك محارمه وأن يتقى جانبه بل إن حقه أن يطاع فلا يعصى، وأن يذكر فلا ينسى، وأن يشكر فلا يكفر لأن الله تعالى: ﴿هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾ (المدثر: 56).

فالتقوى حال قلبي أو أمر داخلي دقيق في نفس الإنسان لا يمكن الجزم بتحقيقه ولا حتى عبر تزكية الناس فلا يمكن أن يعلمه إلا الله، قال تعالى: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجْنَتٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ (النجم: 32).

والمتمقي كما يعرفه الإمام البيضاوي (ت 685هـ) هو "اسم لمن يقي نفسه مما يضره في الآخرة، وله ثلاث مراتب الأولى: التوقي من العذاب المخلد بالتبري من الشرك وعليه قوله تعالى: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾، والثانية: التجنب عن كل ما يؤثم من فعل أو ترك حتى الصغائر عند قوم وهو المتعارف باسم التقوى في الشرع، وهو المعنى بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْفُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا﴾، وأما الثالثة: أن ينتزه عما يشغل سره عن الحق ويتبتل إليه، وهو التقوى الحقيقي المطلوب بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ﴾¹¹.

تتوفر التقوى على ثمرات ومحاسن عدة يتمتع بها المتحققون بها، ولعل أهمها أنها تجعل المتقين في حصن منيع من وساوس الشيطان، وتنور بصيرتهم، وتوسع من إمكانياتهم في مواجهة تلك الأفكار السلبية، ولذلك تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ (الأعراف: 201). كما يكثر في القرآن الكريم ذكر ما ينتظر المتقين من الفلاح والنجاح في المستقبل القريب والبعيد فعاقبة التقوى كلها خير في الدنيا لأن ﴿مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ (الطلاق: 2)، وكذا ﴿مَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ (الطلاق: 4)، كما يُنتظر نجات المتقين من العذاب وفوزهم بجنات النعيم في الآخرة حيث يقول تعالى في سورة النبأ: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَارًا﴾ (النبأ: 31).

نخلص مما تقدم أن معنى التقوى في القرآن الكريم لا ينفصل عن المعنى اللغوي للكلمة، ويتجلى اهتمام القرآن بموضوع التقوى من خلال استعمالاته الكثيرة للفظ التقوى ومشتقاته، ويعود ذلك لأهمية قيمة التقوى في صلاح الإنسان الفرد والإنسان المجتمع، ويمكن القول أن تحقيق التقوى في قلوب الخلق هو الغاية والمقصد، وهو جوهر التكليف التي جاء بها الإسلام، قال تعالى في سورة البقرة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (البقرة: 183)، وقال في موضع آخر: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظِمِ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ (الحج: 32) فالتقوى الحاصلة في القلوب هي ما يصل إلى الله وليس الصورة وشكليات الطاعة، وتعظيم الشعائر إنما يتأتى من تحقيق التقوى.

2.2. "التقوى" في السنة النبوية:

جاء ذكر مادة (وقي) في الحديث النبوي بصفة كثيرة، وتعددت المواضع التي ذكرت فيها الاشتقاقات اللفظية لهذه المادة مثل اتقى واثقى وتوقى وتقيّة لتزيد عن المائتين والخمسين موضعاً، وبلغ ذكر كلمة "تقوى" خمسا وثلاثين مرة في مواضع مختلفة من كتب السنة النبوية¹²، وكلها تفسر معنى التقوى باتخاذ الوقاية اللازمة والصيانة والتحرز والابتعاد عن الوقوع في الشبهات وكل ما من شأنه أن يؤدي إلى غضب الله تعالى واستحقاق عقابه.

ولعل من أبرز الأحاديث التي تبين أهمية الأخذ بالاتقاء والحذر من انتهاك حرمان الله ما رواه الإمام البخاري في صحيحه عن أبي عبد الله النعمان بن بشير قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: "إنَّ الحلال بيِّنٌ، وإنَّ الحرام بيِّنٌ، وبينهما أمور مُشْتَبِهَات لا يعلمهنَّ كثيرٌ من الناس، فَمَنْ اتَّقَى الشُّبُهَات فَقَدْ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعَرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَات وَقَعَ فِي الْحَرَامِ، كَالرَّاعِي يَرعى حَوْلَ الْحِمَى، يُوشِكُ أَنْ يَرْتَعَ فِيهِ، أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى، أَلَا وَإِنَّ حِمَى اللَّهِ مَحَارِمَهُ..."¹³.

فتقوى الله تعالى مطلوبة حيثما كان العبد، سواء كان في الشرق أو الغرب لأن الله مطلع على قلوب عباده باستمرار ولا تخفى عليه خافية، ولذلك كانت التقوى على رأس وصايا النبي ﷺ لمعاذ بن جبل عند خروجه إلى اليمن، أخرج الإمام الترمذي في سننه من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ قال: "اتَّقِ اللَّهَ حَيْثُمَا كُنْتَ، وَأَتَّبِعِ السُّبُلَ الْحَسَنَةَ تَمَحُّهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ"¹⁴.

وتحقيق التقوى ليس بالأمر الهين الميسور فهو يتطلب من العبد التشمير عن ساعد الجد والمثابرة، والانضباط بضوابط الشرع كاملة، ونبذ كل ما من شأنه أن يعيق في التقرب من الله تعالى، سواء بترك المحرمات أو سائر المكروهات، وهو ما يبينه الحديث الذي يرويه الترمذي عن عطية السعدي عن النبي ﷺ أنه قال: "لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذراً لما به البأس"¹⁵.

كما جاء ذكر التقوى بصفة مباشرة وصريحة في الحديث الذي أخرجه الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: "لَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَنَاجَشُوا، وَلَا تَبَاغَضُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَلَا يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا، الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ: لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يَحْقِرُهُ، وَلَا يَخْذُلُهُ، التَّقْوَى هَا هُنَا - ويشير إلى صدره ثلاث مرات - بحسبِ امرئٍ من الشرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ، كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ: دَمُهُ، وَمَالُهُ، وَعَرْضُهُ"¹⁶. وهو ما يبين أهمية التقوى في ضبط الأخلاق وصقل المعاملات بين الناس مع التأكيد على أن التقوى لا تستفاد من الأعمال الظاهرة، وإنما تحصل بما يقع في القلب من عظمة الله تعالى وخشيته ومراقبته¹⁷.

وهكذا يتبين أن معنى التقوى في السنة النبوية يتكامل مع المعنى الذي يقدمه القرآن الكريم لها، تلك القيمة الأخلاقية التي تتعلق بها شهودية المجتمع الإسلامي وترقيته، وكأن التقوى هي المضمرة الذي يتسابق فيه الناس إلى التقرب من الله تعالى، كل من موقعه، ومن ثمة فلا غرابة أن تكون التقوى معيار التفاضل بين الناس، ليكون الأتقى هو الأكرم عند الله بين الناس جميعاً، وذلك بنص رسول الله ﷺ، فهو القائل في خطبة الوداع: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ؛ إِنْ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ، أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى أَعْجَمِيٍّ، وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ، وَلَا لِأَحْمَرٍ عَلَى أَسْوَدٍ، وَلَا لِأَسْوَدٍ عَلَى أَحْمَرٍ، إِلَّا بِالتَّقْوَى، إِنْ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ اتَّقَاكُمْ..."¹⁸.

3. مفهوم التقوى في الفكر الإسلامي:

يحتل مصطلح التقوى مكانة مرموقة في مدونة التراث الإسلامي، وقد لاقى اهتماما واسعا من رجال الفكر الإسلامي على اختلاف مشاربهم، وأقصد بذلك أهل الفقه وأهل التصوف الذين تمايزت تصوراتهم لمفهوم التقوى وحقيقتها، ليحاول كل من موقعه تعريف هذا المصطلح اللصيق بمعنى عبادة الله تعالى، ولئن أطال الفقهاء الوقوف على عمل الجوارح والأعضاء فإن الصوفية اهتموا كثيرا بعمل القلوب باعتبار أن التقوى مبحث قلبي بامتياز وأن تحقيقها لا ينفك عن سلامة القلب من الأمراض والأدواء.

وقد انتبه الحارث المحاسبي (ت 243هـ) مبكرا إلى أهمية تحقيق التقوى في عبادة الله تعالى فالتقوى عنده هي "أول منازل العابدين، وبها يدركون أعلاها، وبها تزكوا أعمالهم لأن الله جل وعز لا يقبل عملا إلا ما أريد به وجهه"¹⁹. فحقيقة التقوى لا تتمثل في الصورة وشكليات التدين بقدر ما تكمن في القلب المتوجه إلى الله تعالى والذي يحذر سخطه ويرجو رحمته متحررا من نظر الخلق ومستأنسا بالحق، ويصف صاحب الرعاية لحقوق الله حال عامة العابدين في زمانه وما آلت إليه من انحراف عن حقيقة التقوى فيقول: "كم من متكشف في لباسه متذل في نفسه أخذ من حطام الدنيا اليسير، ومن مصل وصائم، وغار وحاج، وبك وداع، ومظهر الزهادة في الدنيا، والرفض لها على غير صدق من الضمير لرب العالمين عز وجل، يتصنع للعباد بما يظهر من الطاعات، ويرى أنه من المخلصين وجوارحه عليه منتشرة، من عين ينظر بها إلى ما كره الله، ولسان يتكلم بما لا يحب الله جل وعز عند غضبه وعند أنسه بالناس ومحدثته بالغيبة وغيرها"²⁰.

وهذا لا يعني أن أعمال الجوارح ليست ذات أهمية واعتبار بل هي من مشمولات معنى التقوى بالمفهوم الإسلامي، ولذلك نجد أغلب المصنفين في شرحها وتقريبها يقسمها إلى قسمين الظاهر والباطن، وهذا القشيري (ت 465هـ) مثلا يعقد بابا لمصطلح التقوى في رسالته ويؤكد على أن للتقوى ظاهرا وباطنا، فظاهرها محافظة الحدود وباطنها النية والإخلاص، وينقل عن ذي النون المصري (ت 246هـ) تعريفه لمن تحقق بصفة التقوى وتحلى بها في ظاهره وباطنه، فأطلق عليه اسم التقي أي "من لم يُدنس ظاهره بالمعارضات ولا باطنه بالعلالات، ويكون واقفا مع الله موقف الاتفاق"²¹.

فمفهوم التقوى في التصور الإسلامي ليس ذو بعد واحد وإنما يشمل الإنسان في جانبه المادي والمعنوي ليكون للتقوى حقيقتان؛ تعنى الأولى بالقالب والأخرى تهتم بالقلب "فحقيقتها في الجوارح القيام بالحق وترك المعاصي، وحقيقتها في الضمير إرادة الديان بالفرض وبإخلاص العمل له في النفل بالبكاء والأحزان والصلاة والصيام وجميع أعمال الطاعات مما ندب الله إليها عباده ولم يفترضها عليهم رافة بهم ورحمة لهم"²² على حد تعبير المحاسبي.

ويعد الإخلاص في العبادة لله تعالى من أكثر المصطلحات التي تطلق ويعبر بها عن التقوى باعتبار أن المتقين هم الذين يسهرون على تخليص أعمالهم لله تعالى ويتوقون من كل ما يمكنه إلحاق الضرر بها من شرك ورياء وغيرها، فتحقيق التقوى يتطلب مراقبة مستمرة للقلب، وفي هذا المعنى يقول الغزالي (ت 505هـ) معرفا للتقوى: "تنزيه القلب عن ذنب لم يسبق عنك مثله حتى يجعل العبد من قوة العزم على تركها ووقاية بينه وبين المعاصي. فإذا وطّن قلبه على ذلك فحينئذ يوصف بأنه متق، ويقال لذلك التوبة والعزم تقوى"²³.

ترتبط عملية تحقيق التقوى باعتبارها مجانبية للمعاصي ببذل المجهود على ترك المعاصي والذنوب كبيرها وصغيرها²⁴، ولذلك كانت مرتبتان تتمثل الأولى في ترك المعاصي الفرض ويلزم بتركها العذاب،

والثانية تتمثل في ترك المباحات وسائر المكروهات على سبيل الخير والأدب ويلزم بتركها التقريع واللوم ويؤكد الغزالي على أن "من أتى بالأولى فهو في الدرجة الأولى من التقوى وتلك منزلة مستقيم الطاعة، ومن أتى بالثانية فهو في الدرجة العليا من التقوى فإذا جمع العبد بين اجتناب كل معصية وفضول، فقد استكمل معنى التقوى وهو الورع الكامل الذي هو ملاك أمر الدين"²⁵.

ومن هنا نقف على صلة مفهوم التقوى بمصطلح الورع والذي خصه ابن القيم (ت 751هـ) بفصل في كتابه مدارج السالكين حيث يمثل الورع قمة التقوى ورأسها فهو "توقّ مستقصى على حذر، وتحرّج على تعظيم"²⁶ والورع بعبارة أخرى توق للحرام والشبه، وما يُخاف أن يضر أقصى ما يمكن من التوقّي لأن التوقّي والحذر متقاربان، إلا أن التوقّي فعل الجوارح، والحذر فعل القلب، فقد يتوقّى العبد لا على وجه الحذر والخوف"²⁷، وهو ما يحيلنا على ارتباط مفهوم التقوى بمصطلح الخوف وتعظيم الله تعالى فلا تنفع محبة الله إذا لم تصحبها تعظيم شأن المحبوب في القلب، فتقوى الله تعالى تعني أن نتقي غضب الله الذي يؤدي بنا إلى أن نتقي كل صفات جلاله والتي نجدها في (القهار، الجبار، المذل، المنتقم، والضار) والتي من متعلقاتها النار، ونجعل بيننا وبينها وقاية، فمن اتقى صفات جلال الله أخذ صفات جماله"²⁸ على حد تعبير الشعراوي (ت 1418هـ).

نخلص مما تقدم ذكره أن مفهوم التقوى في الفكر الإسلامي لا يتعارض مع المفهوم اللغوي والشرعي بل يؤكدهما، وتميزت كلمة التقوى بحضور خاص في الفكر الإسلامي ولا سيما مع أهل التصوف الذين عدوها مرتبة سامية ومنزلة راقية ينتهي إليه من عمل على تخليص دينه لله تعالى دون سواه، حيث ارتبطت التقوى بمعنى تحقيق العبودية لله تعالى باطنا وظاهرا، وسرا وعلانية، كما اتسمت بشموليتها فتضمنت معاني الإخلاص والورع والخوف من الله تعالى وتعظيمه ومحبته.

4. أخلال في مفهوم التقوى:

يندرج مصطلح التقوى ضمن المنظومة الأخلاقية الإسلامية، وقد عرف على مر التاريخ الإسلامي عدة إخلالات وانحرافات، أسهمت بشكل كبير في الحد من مردوديته وفاعليته في الواقع، تلك الإخلالات التي تعلقت أساسا بسوء استقبال هذا المصطلح الإيماني والإفراط في تنزيله والعمل به تارة، والتفريط في متطلباته ومقتضياته تارة أخرى، وهو ما عاد بنتيجة عكسية أضرت بطموحات الأمة الإسلامية وأفقدتها مكانتها بين الأمم، وحالت دون تحقيق تقدمها وشهودها الحضاري. ومن بين أهم مظاهر تلك الانحرافات:

1.4. الانعزال والرهابية:

يعود منشأ هذا الانحراف في تصور معنى التقوى إلى طائفة من العباد غلب عليهم الجهل فظنوا أن التقوى هي الإعراض عن الدنيا وكل متعلقاتها بصفة كليّة، وهو ما جعلهم ينظرون إلى الدنيا بعين واحدة، ولم يتمثلوا المعنى القرآني للتقوى والزهد التمثل السليم، فأنحرفوا عن جادة الصواب لأن التقوى بهذا المفهوم هي "ضد الفطرة التي فطر الله الخلق عليها، وضد ما يطلبه الإسلام من عمارة الأرض، وهذا ضد ما يقضيه المجتمع المسلم، وتستوجبه قوة الأمة المسلمة، وتفوّقها في شؤون الدين والدنيا، وارتقاءها في سلم الحضارة"²⁹ كما قال الشيخ القرضاوي (ت 1444هـ).

كما يجد هذا الخلل مستندا عند أصحاب الديانة النصرانية والتي يكون فيها القس متعاليا عن رغباته وشهواته الإنسانية فيمتنع عن النساء والزواج بهدف التخلص من دنس الشهوات ودفنها، وهو ما تسرب إلى بعض المنتسبين إلى الإسلام فسلكوا مسلك الرهبان في نفي الشهوات ومحاولة استئصالها، في حين أن الشهوة تنبني على حكمة عالية في الإسلام وهي إدامة النسل، كما يوضح ذلك الغزالي (ت 505هـ) في

كتابته إحياء علوم الدين، فالمقصود من التحذير من اتباع الشهوات أن يسيطر الإنسان على شهواته لا أن تسيطر عليه، بلا إفراط أو تفريط لأن الشهوة "إذا زادت كان الفسق والفجور، وإن نقصت كان العجز والفقر، وإن توسطت كان العفة والقناعة"³⁰.

2.4. قصر التقوى على الظواهر:

أنتج إبعاد الدين عن المنهج التعليمي ضعفا فادحا ونقصا واضحا في رصيد العلم الشرعي لدى كثير من الناس، مما أدى إلى تردي الأذواق وتبلد الأفهام حتى ظن هؤلاء أن التقوى عبارة عن بعض الشكليات والصور لا غير، وقد فاتهم أن مظاهر التقوى لا تعبر عن حقيقة التقوى بالضرورة لأن التقوى تنبع من القلب المخلص لله تعالى، وهي نتاج تربية ومراقبة ومحاسبة مستمرة للنفس تنتشر فتستولي على كل الجوارح والأعضاء، ويقول محمد الغزالي (ت 1418هـ) مؤكدا على أهمية الأخذ بحقيقة التقوى وتعهد القلب بالإخلاص لله تعالى "والقلب المقفر من الإخلاص لا ينبت قبولا كالحجر المكسوّ بالتراب لا يخرج زرعاً، والقشور الخادعة لا تغني عن اللباب الرديء شيئا، ألا ما أنفس الإخلاص وأغزر بركته إنه يخالط القليل فينميهِ وحتى يزن الجبال ويخلو منه الكثير فلا يزن عند الله هباءة"³¹.

وتجدر الإشارة إلى أن هذا الخلل يكثر لدى فئة الشباب على وجه الخصوص، باعتبار ما يتوفرون عليه من مشاعر حماسية لممارسة تدينهم وسط بيئة مادية تعبد الصور، ولا تعترف بالمعنويات ولا تلقي لها بالا، وهو ما انعكس سلبا على الشباب المسلم وجعله يخطئ المعنى الحقيقي للتقوى. وقد أحسن سيد قطب (ت 1966م) في توصيف حقيقة التقوى فقال بأنها "حساسية في الضمير، وشفافية في الشعور، وخشية مستمرة، وحذر دائم، وتوق لأشواك الطريق؛ طريق الحياة الذي تتجاذبه أشواك الرغائب والشهوات، وأشواك المطامع والمطامح، وأشواك المخاوف والهواجس، وأشواك الرجاء الكاذب فيمن لا يملك إجابة رجاء، والخوف الكاذب ممن لا يملك نفعاً ولا ضراً، وعشرات غيرها من الأشواك"³².

3.4. الغفلة عن حقيقة التقوى:

نشأ عن تغوّل التيار المادي في البيئة الإسلامية عدة أمراض وصعوبات طالت عقيدة المسلمين، فشوهت العقول وشوّشت القلوب مما أدى إلى ضعف التقوى في نفوس كثير من الناس، وقد تجلّت مظاهر ذلك الضعف في شتى مجالات الحياة من اقتصاد وسياسة وتعليم وهو ما أثر سلبا على واقع الأمة الإسلامية، كما يعود ذلك إلى طغيان السطحية في التفكير والتي لا تستطيع النفاذ إلى أعماق معاني الإيمان فضلا عن الوقوف على مقتضيات توحيد الله تعالى وإفراده بالعبودية، وهو ما جعل الدكتور عبد المجيد النجار يصرح بأن الخلل الذي أصاب الأمة الإسلامية في تحملها لعقيدتها قد كان عاملا حاسما في تدهورها وانحسارها الحضاري، سواء ما آل إليه الأمر من انحراف في التصور العقدي، أو من سطحية في التحمل الإيماني، والتي تراخى بها الدافع الإرادي للعمل الحضاري³³.

فلا شك أن قلاع الإيمان التقليدي قد تزعزعت وتصدعت أمام هجمات هذا العصر الرهيب وصار من اللازم التحلي بالإيمان الحقيقي، ذلك الإيمان الذي لا يهزم أمام جيش الشبهات والشهوات، ويرسخ في الإنسان معاني التقوى من مراقبة الله تعالى واجتناب نواهيه وامتنال أوامره، وهو ما يجعله في حصن منيع من هجمات الضلالة والإفساد، فلا يسلب إيمانه ولا يخبو يقينه ولا تضعف تقواه لله تعالى بما أنه بلغ "مرتبة إيمانية حقيقية لا تتوقف في حدود العقل فحسب بل تسري إلى القلب وإلى الروح وإلى السر وإلى لطائف أخرى فيترسخ فيها رسوخا قويا بحيث لا تصل يد الشيطان إليها أبدا"³⁴ على حد تعبير النورسي (ت 1960م) في رسائله.

خلاصة

التقوى ملكة ربانية منحها الله الإنسان ليقى بها نفسه ويصونها مما يخاف من أنواع المخاطر والأضرار، ثم جاءت رسالة الإسلام لتعزيزها وتوكيدها، والترشيد إلى ضرورة صرف هذا الاستعداد في اتقاء الله تعالى، وذلك باجتناب ما نهى الله عنه والامتناع لما أمر به، ونظرا لارتباط التقوى بالمجهود البشري في تحقيقها كانت متفاوتة وذات مراتب ودرجات أدناها مجانية الحرام فرضا وأعلاه التنزه عن الولوج إلى المباحات والأخذ بالرخص، فالمتمق هو مقام سام يبلغه كل من أخلص دينه لله تعالى وترك الحلال مخافة الوقوع في الحرام.

وتعود أغلب الانحرافات والأخلاق التي دخلت مفهوم التقوى إلى أسباب متعددة أهمها الغلو والإفراط في العمل بها مما أدى إلى رهبانية يمقتها الإسلام ولا يدعو إليها، كما أدى الاعتقاد بأن التقوى في القلب إلى الاستخفاف بعمل الجوارح، وهو ما انحرف عن حقيقة التقوى باعتبارها تشمل ظاهر الإنسان وباطنه، الأمر الذي أدى إلى تدهور هذا المفهوم أكثر فضلا عن تفشي السطحية في التفكير -وهي من سيئات المناخ المادي الذي نعيشه- وظهور الإيمان التقليدي الذي لا يصمد أمام أدنى شبهة من شبهات هذا العصر.

المصادر والمراجع:

القرآن الكريم

- 1- الأصفهاني الراغب، مفردات ألفاظ القرآن، الدار القلم، دمشق، ط1/2003م.
- 2- الألوسي شهاب الدين، روح المعاني في تفسير القرآن الكريم والسبع المثاني، دار الكتب العلمية، بيروت، 1/1994م.
- 3- البيضاوي عبد الله، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ت.
- 4- البخاري محمد بن إسماعيل، الصحيح، دار طوق النجاة، بيروت، ط1/1422هـ.
- 5- الترمذي محمد بن عيسى، السنن، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1996م.
- 6- التهانوي محمد علي، كشف مصطلحات الفنون، مكتبة لبنان، بيروت، 1996م.
- 7- الجرجاني عبد القاهر، التعريفات، مكتبة لبنان، بيروت، 1985م.
- 8- الحفني عبد المنعم، معجم مصطلحات الصوفية، دار المسيرة، بيروت، 2/1987م.
- 9- ابن حنبل أحمد، المسند، مؤسسة الرسالة، ط1/2001م.
- 10- الزبيدي مرتضى، تاج العروس، دار التراث العربي، الكويت، د.ت.
- 11- الزمخشري محمود، أساس البلاغة، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.
- 12- الشعراوي محمد متولي، تفسير الشعراوي، مكتبة أخبار اليوم، القاهرة، د.ت.
- 13- ابن عاشور محمد الطاهر، التحرير والتنوير، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، د.ت.
- 14- عبد الباقي محمد فؤاد، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، 1364هـ.
- 15- عبد الباقي محمد فؤاد، المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي، مكتبة بريل، 1936م.
- 16- الغزالي أبو حامد، إحياء علوم الدين، المكتبة العصرية، القاهرة.
- 17- الغزالي أبو حامد، مجموعة رسائل الغزالي، المكتبة التوفيقية، القاهرة، د.ت.
- 18- الغزالي محمد، خلق المسلم، دار الريان للتراث، القاهرة، 1/1987.
- 19- ابن فارس أحمد، مقاييس اللغة، دار الفكر للنشر والتوزيع، بيروت، د.ت.
- 20- القرطبي يوسف، في الطريق إلى الله الورع والزهد، د.ط.
- 21- القشيري أبو القاسم، الرسالة القشيرية، دار المعارف، القاهرة، د.ت.
- 22- قطب سيد، في ضلال القرآن، دار الشروق، القاهرة، 8/2003.
- 23- ابن قيم الجوزية شمس الدين، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، دار الكتاب العربي، بيروت، 2003/7.
- 24- المحاسبي الحارث، الرعاية لحقوق الله، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.
- 25- مسلم أبو الحسين، الصحيح، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1955م.
- 26- ابن منظور محمد، لسان العرب، دار صادر، بيروت، 1988م.

- 27- النجار عبد المجيد، دور الإصلاح العقدي في النهضة الإسلامية، مجلة إسلامية المعرفة، عدد 1، 1994م.
 - 28- النورسي بديع الزمان سعيد، الملاحق، دار سوزلر للنشر، القاهرة، 2011/6.
 - 29- النووي يحيى بن شرف، المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج، المطبعة المصرية، القاهرة، 1929/1م.
- الهوامش:**
- 1- ابن فارس أحمد، مقاييس اللغة، دار الفكر للنشر والتوزيع، بيروت، د.ت، 129/3.
 - 2- الزمخشري محمود، أساس البلاغة، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت، 258/6.
 - 3- ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، 1988م، 357/9.
 - 4- الزبيدي مرتضى، تاج العروس، دار التراث العربي، الكويت، د.ت، 246/16.
 - 5- الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، الدار القلم، دمشق، ط1، 1998م، ص189.
 - 6- الجرجاني، التعريفات، مكتبة لبنان، بيروت، 1985م، ص620.
 - 7- التهانوي، كشف مصطلحات الفنون، مكتبة لبنان، بيروت، 1996م، ص501.
 - 8- ابن عاشور، التحرير والتنوير، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، د.ت، 69/1.
 - 9- الحفني عبد المنعم، معجم مصطلحات الصوفية، دار المسيرة، بيروت، 1987/2م، ص43.
 - 10- راجع عبد الباقي فؤاد، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، 1364هـ، 298/7.
 - 11- البيضاوي عبد الله، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ت، 35/1.
 - 12- راجع عبد الباقي محمد فؤاد، المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي، مكتبة بريل، 1936م، 295/7.
 - 13- البخاري، الجامع الصحيح، كتاب البيوع، باب في الحلال بين والحرام بين، حديث رقم 2531.
 - 14- الترمذي، السنن، كتاب البر والصلة عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في معالي الأخلاق، حديث رقم 2018.
 - 15- الترمذي، السنن، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في صفة أواني الحوض، حديث رقم 2451.
 - 16- مسلم، الصحيح، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله، حديث رقم 2564.
 - 17- راجع النووي، المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج، المطبعة المصرية، القاهرة، 1929/1م، 66/1.
 - 18- ابن حنبل أحمد، المسند، باقي مسند الأنصار، حديث رجل من أصحاب النبي ﷺ، حديث رقم 22978.
 - 19- المحاسبى الحارث، الرعاية لحقوق الله، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت، ص8.
 - 20- المصدر نفسه، ص9.
 - 21- القشيري أبو القاسم، الرسالة القشيرية، دار المعارف، القاهرة، د.ت، 69/2.
 - 22- مرجع نفسه، 70/2.
 - 23- الغزالي أبو حامد، مجموعة رسائل الغزالي، المكتبة التوفيقية، القاهرة، د.ت، ص149.
 - 24- حتى قيل: خل الذنوب كبيرها * وصغيرها فهو التقى / واصنع كماش فوق أر * ض الشوك يحذر ما يرى / لا تحقرن صغيرة * إن الجبال من الحصى. راجع الألوسي شهاب الدين، روح المعاني في تفسير القرآن الكريم والسبع المثاني، دار الكتب العلمية، بيروت، 1994/1م، ص23.
 - 25- الغزالي أبو حامد، مجموعة رسائل الغزالي، ص151.
 - 26- ابن القيم، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، دار الكتاب العربي، بيروت، 2003/7، 165/2.
 - 27- مرجع نفسه، 199/2.
 - 28- الشعراوي محمد متولي، تفسير الشعراوي، مكتبة أخبار اليوم، القاهرة، د.ت، 28/1.
 - 29- القرطبي يوسف، في الطريق إلى الله الورع والزهد، د.ط، ص89.
 - 30- الغزالي أبو حامد، إحياء علوم الدين، المكتبة العصرية، القاهرة، 176/1.
 - 31- الغزالي محمد، خلق المسلم، دار الريان للتراث، القاهرة، 1987/1، ص71.
 - 32- سيد قطب، في ضلال القرآن، دار الشروق، القاهرة، 2003/8، 39/1.
 - 33- راجع النجار عبد المجيد، دور الإصلاح العقدي في النهضة الإسلامية، مجلة إسلامية المعرفة، عدد 1، 1994م، ص57.
 - 34- النورسي بديع الزمان سعيد، الملاحق، دار سوزلر للنشر، القاهرة، 2011/6، ص262.